

المقالة التاسعة^١

في تقويم المتراخين من العباد بسيرة ذات ألم، ويبتغون الكرامات

يا إخوتي أنا منذهل ومجروح بالحزن من أجل النبي القائل : " انظروا أيها المتهاونون وأعجبوا".
فأولاً : أتحير من أجل ذاتي خاصة ؛ من قبل جهلي وعدم أدبي ؛ لأنني صرت طرقاتاً لكل ألم ولكل
خطيئة ؛ والعدو ربطني كل عضو ، فينبغي لي أن أنتحب وأبكي على ذاتي من أجل الخزي الحاصل
في .

لأنني أهتم بالأشياء التي للآخرين ، وكان سبيلي أن أنتزع أولاً السارية التي في عيني ؛ ثم أعين
القذى الذي في عين أخي .

إلا أن التهاون الصائر الآن في وقتنا يغيصني في الحزن جداً ؛ لأنني أبصر الونية المشتملة علينا
الآن ؛ ولا يمكنني أن أحتمل بل أتوجع نظير القائل :
" رأيت الذين لا ذهن لهم فذبت".

لأن أية آلة لم ينصب لنا المعاند ؛ أو أية صناعة كثيرة أنواعها لم يمسكنا بها ، ويلي من لا يبكي
على الأسواء المتشبهة بنا ؛ أصغوا إلى المقولات فإنني أتضرع إليكم أنتم الذين اخترتم هذه السيرة أن
تصغوا وتفرقوا رعباً .

لأننا قد لبسنا زي الملائكة ونحن نناجي المحال ، إن الإسكيم ملائكي والسيرة عالمية ، أترى
الملائكة في السماوات يسرون بالمحك والغيرة كما نشاهد الآن فينا ، لأنه قد تأصل فينا الحسد
والغيرة والوقية .

لأن المحال المكار قد نضح سمه بحال مختلفة في كل واحد منا ؛ وبصناعته يعرفنا .
فواحد قد قوم الصوم ، وقد مُسك بالغيرة والحسد ، وآخر قد مسك ذاته من الشهوة الشنعاء ؛ وقيد
تقييداً بالسبح الباطل ، آخر قد قوم السهر وقد أقتنص بالوقية .

آخر قد أبعد الوقية ؛ وامتلاً من عدم الخضوع والمجاوبة ، آخر قد مسك ذاته عن الأغذية ؛
وغرق بالصلف والتهيه ، آخر يواظب على الصلوات ؛ وينغلب من الغضب والغيط .
آخر قد قوم شيئاً يسيراً ؛ وهو مترفع على المتوانيين ، وآخر قد قيدته الرذيلة ؛ وليس من يفهم .

من أجل هذا يوجد في العبادة مباحكات وانشاقات ؛ ويلي من لا يتنهد ؛ من لا ينوح على ضعف
هذه السيرة الملائكية ؛ لأننا قد تركنا العالم ؛ ونحن نعقل معقولات العالم . طرحنا القنيان ؛ ولا نكف
ولا نستقر من الخصومات . تركنا المنازل ؛ ونذوب بالاهتمام بها كل يوم .

ليس لنا غنى ؛ والكبرياء لا نتركها . أهملنا التزويج ؛ ولا ننتقل من الطغيان الباطل . من داخل
نتواضع ؛ وبالنفس نلتمس الكرامات . عادمين القنية بالظن ؛ ومضبوظين باحتشاد المال . عادمين
القنية بالكلام ؛ ومرتبطين بالذهن بمحبة الاقتناء .

من لا ينوح على زهدنا وعلى ونيتنا ، من يبصر ولا يعجب من صنائع العباد ولا سيما المبتدئين
والشباب ، لأنهم ما زهدوا بالقول ؛ ويتصلفون . وما خاطبوا أحداً بالإسكيم ؛ ويتعظمون . ما سمعوا
التعليم ؛ ويعظون . لم يبصروا الدهاليز ؛ ويتصورون الأشياء التي داخل .

^١ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في بركة الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

لم يرتقوا الدرج ؛ ويطيرون نظير السحب . بالسواء لم يذوقوا النسك؛ ويتدعون بالسبح الباطل . لم يسمعا صوت الأذان ؛ ويربون . لم يجتمعا بالرفقة الأخوية ، ويتسيدون متمولين . لم يدخلوا أبواب الدير ؛ وقد صاروا يظنون ويذمون ويقطبون .

فلا أفني الوقت لأن صنائعهم كثيرة ؛ وليس من يفهم ؛ ولا من يزهد من أجل الله ليبدل ذاته بالطاعة عبداً لأخوته ؛ لكن إن أنتهر ؛ يجابو بمعاني من الخطابة . وإذا أطاع ؛ يشكك ذاته ولا يغير العزم الصالح . ويرتب ذاته في الأشياء التي لا تنفع .

ليس له ثلاثة أيام منذ زهده في العالم ؛ ويخاصم من شاخ في الإسكيم ، إذ لا يريدون أن يطيعوا ؛ يخترعون لذاتهم صنائع . إذ لا يحتملون حرارة الجسد ؛ ويتهم ويعادي بعضهم بعضاً ، ما دخلوا تحت النير ؛ وينتهرون ويأمرون ويسخطون .

أعمل هذا أيها الأخ ؛ فيقول : لا أعمله إن لم يجئ فلان . فلان متشاغل بدراسة الكتب ؛ فسبيلي أنا أن أثار عليها .

ولعله قبل زهده كان يعيش عيشة الفعلة ، ولم يعرف في قديم أمره ما هي يمانه ويسراه ، وفي حال مجيئه إلى الدير قد ظهر محباً للعلم و مترجماً .

فلان الأخ مرتاح ؛ فينبغي لي أنا مثله أن أرتاح . يتفرج ؛ فسبيلي أنا أن أتزهد . يلبس حلة ؛ فيجب لي أن ألبس مثله . أخذ كرامة ؛ فينبغي لي أن أكرم ، قد مضى يحدث الآباء ؛ فسبيلي أن أفوضهم . فوض إليه السلطان على الأمر الفلاني ، أتراني لا أستحق أن أؤتمن أنا عليه .

هذه الأمور التي يرضاها الشباب . هذا تواضع المبتدئين . هذه أتعاب وأثمار الزيتون الحديث نصبه . أبهذا الجهاد يحرصون أن يرثوا الملكوت .

من أجل هذا صاروا أعداء لله . بهذه الأشياء يظهر أننا لم نزهد بشيء يسير من سيرة العالم لأننا بالوهم زهدنا ؛ وبالحقيقة نعقل معقول العالم .

وبالحقيقة ليس لنا اعتذار لأننا بالإسكيم عباد ؛ وبالخلق جفاه وعادمو الإنسانية . بالإسكيم متورعون ؛ وبالخلق قتال . بالإسكيم والزي متواضعون ؛ وبالخلق مفسدون . بالإسكيم والزي محبوبون ؛ وبالسخاوة ماقتون . بالإسكيم صادقون ؛ وبالسمية معادون .

بالشكل صائمون ؛ وبالقلب مجربون . بالإسكيم نساك ؛ وبالقلب متكبرون مجاهدون . بالزي أعفاء؛ وبالقلب زناة . بالزي صامتون ؛ وبالقلب طامحون . بالزي ودعاء ؛ وبالخلق متعظمون .

بالزي معزون ؛ وبالسجية شامتون . بالزي مشيرون ؛ وبالحال مرءاؤون ، بالزي هادئون ؛ وبالخلق ماكرون . بالزي غير حاسدين ؛ وبالخلق حسودين . بالزي ناصرون ؛ وبالشيمة دافعون .

أترى من أين تعرض لنا مثل هذه الأمور ؟ سوى من كون ليس لنا محبة كاملة بعضنا لبعض ، وليست لنا ألفة نقية ؛ وليس لنا تواضع حقيقي ؛ وليس لنا خوف الله أمام أعيننا .

أننا نتهاون ونتغافل ونظن أن الوصية الخلاصية خرافة وهذيان ، بكلمة الله تتشدد السماوات ؛ ونحن لا نقبله بصفة أخ .

ذلك الفم المرهوب والغير مدرك والمرعب قال : " من يشاء أن يكون فيكم عظيماً فليصير لكم خادماً " . ونحن قبل أن نعاين درجة الإسكيم نتكبر ويستعظم الواحد منا على الآخر ؛ ويطفر بعضنا على بعض ، وكلنا عقلاء عند ذاتنا ، كلنا مدبرون .

كلنا متسلطون ؛ مرتبون ؛ منتهرون ؛ مفترضو الشريعة ؛ محبو الأمر والنهي ؛ مترجمون ؛ معلمون ؛ كلنا نامر ؛ كلنا مهتمون ؛ قهارمة ؛ أولون .

أترى لا يقنعكم قول الرسول بولس إذ يقول : " إن كان الجسد كله سمعاً ، فأين المشم ؟ " . إن كان الكل أولو الجماعة ؛ مدبرو ؛ الكافة مرتبون ، فأين تفاضل ترتيب الله ؟

ومع هذا ألا يقنعكم أن تدعونا للقتال : " ليس أحد يأخذ الكرامة من ذاته إلا المدعو من الله " .

أم كيف يقول أيضاً : " أترى كلهم معلمون " .
من أجل هذا رتب الله رئاسات وسلطات ؛ لأنه إن كان في السموات كل أرواح الخدمة الغير بالين ولا مائتين لم يرضي الله أن يكونوا في رتبة واحدة ؛ بل رتب رؤساء وسلاطين وعظماء ؛ وكل واحد منهم لا يتجاوز رتبته ؛ وكافة الأشياء قد صارت بترتيب وثبات .
فلم نخاصم بعضنا بعضاً خصومات جائرة ؛ والملائكة ورؤساء الملائكة لا يتجاوزون الحدود المرتبة لهم .

ونحن ندفع بعضنا بعضاً ؛ ويريد الواحد أن يكرس الآخر ؛ ويسابق بعضنا بعضاً قفزاً ، ونزدري ونستصغر كأننا نستطيع أن نقوم شيئاً أكثر منهم . ترحماً لعماية الذهن .
ألا تدعون لقول القائل : كل أحد فليثبت في الأمر الذي دعي إليه . كيف تتقون القائل : " إن من يعطى كثيراً يطالب بكثير " . لكي تقتنوا بهذا تواضعاً . يا إخواني لا نستكمل عمرنا بهذه المناقص المذمومة ، كمن ليس أمام أعينهم القضية المرهوبة .
لا نسير كمن لا يزعمون أن يعطوا جواباً عن كل أمر ، لا تصيروا عثرة وشكاً للذين هم من خارج ، لا نضيفن خطيئة على خطايانا ، لا يُفترَ على الإسكيم الجليل من أجل عدمنا الفهم ، بل الأليق أن يُمدح بنا .

فإنه ستوافي وتجيئ تلك الساعة المرهوبة ولا تبطنى ؛ وفيها نكون بلا اعتذار ، لأنه ماذا نستطيع أن نقول لله ؟ وماذا احتجنا أن يصنعه بنا ولم يفعله ؟
هل ما رأينا الإله نفسه متواضعاً بصورة عبد لنتواضع نحن ونصير متواضعين ، أما رأينا وجهه الأقدس الذي لا يصفه عقل مبصوقاً عليه لكي إذا شئنا وانتهرنا لا نتوحش ونتنمر ، بل أما شهدنا ظهره مبذولاً للسياط لكي نخضع لمدبرينا ، أو ما عاينا وجهه وقد لطم لكي إذا رفضنا لا نتنمر .
هل ما سمعنا عنه أنه لم يناصر ولم يجاوب ؛ لكي لا نكون مستبدين برأينا ولا نجاوب . وأما سمعناه يقول : أنا لا أعمل من ذاتي شيئاً . حتى لا نصير نحن متعظمين مالكين مشيئتنا بذاتنا وحاوين السلطان على ذاتنا . بل ترى أما سمعناه قائلاً : تعلموا مني فإني وديع ومتواضع القلب . لنصير نحن ودعاء ومتضعين القلب .

لكننا نحن نحسد بعضنا بعضاً ؛ وننهب ونأكل بعضنا بعضاً . أي جواب نعطيه .
أطلب إليكم لا من أجل الآلام البشرية نخرج من السعادة التي لا تنتهي ؛ ولا من أجل الكرامة الوقتية نضيع المجد المؤبد ، ولا من أجل المحك والغيرة والحسد نشجب في نار جهنم .
قد التمسنا أن تخلص فلم تفحص أمر قريبيك ، قد دخلت تحت النير فلم توغر وترتب ليشتهر ثمر طاعتك .

ثق فإنه لا مرتبة ؛ ولا كرامة ؛ ولا عظم شأن ؛ ولا بأن يقال لأحد أولاً وثانياً ، ولا بأن يسمى مدبراً ، ولا بأن يدعى أيها الشريف ، ولا بأن يفوض إليه كرامة ، ولا بأن يؤتمن على مرتبة يدخل بهذه إلى ملكوت السموات ، أو يعطى صفحاً عن خطاياها ، أو ينجى من التعذيب . بل هذه تُشجب وتُهلك .

لكن التواضع ؛ والطاعة ؛ والمحبة ؛ والصبر ؛ وطول الروح ؛ تمنح ملكوت السموات وتوابعه .
لأنه لا يستطيع أحد أن ينجح ويوقر ويخلص إلا بالتشبه بالرب في الكل .
أما قد سمعتموه قائلاً : " ما جنئت لأخدم بل لأخدم " . وأيضاً : " ما جنئت لأصنع مشيئتي بل مشيئة من أرسلني " . وأيضاً : " من يعلي ذاته يوضع " . أو ما سمعتم كيف يطوب قائلاً : " الطوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات " .

أما سمعت أنك كنت إذا جلست تغتاب أخاك وكيف يوعد أنه سيوبخك تجاه وجهك ، أما قد سمعتم أن من يبغض أخاه هو في الظلمة وأن المحال من أجل الجسد سقط من السموات . أو ما قد وعيتم أنه

من أجل الكبرياء والمجاوبة هبط من أي مجد وشرف ، وأن مريم أخت موسى من أجل كلمة تعبير أصيبت بالبرص .

فلماذا ولنا مثل هذه الأنموذجات نسد آذاننا كما لأفعى ، لا أعني الأذان الجسدانية بل آذان القلب ، لأن هذه تتذكر لكن تلك لا تتذكر .

لم لا تصدق القائل : " أن من يثبت في المحبة يثبت في الله " .
أُتضرع إليكم يا معشر الرعية المنتخبة أن نستفيق ما دام لنا وقت ، ولنتعفف ما دمنا في الإمهال .
لئلا تفاجئنا تلك الساعة المرهبة المؤلمة ؛ فننوح بمرارة نادمين تندماً لا ينفع ، لئلا نخزي بذلك الخزي العظيم أمام الله والملائكة والناس .

ولنكف عن الخصومات ؛ ولا سيما نحن الحاويين الحواس الشبابية ، تواضعوا بكل ما لكم من قوة لتستطيعوا أن تتركوا الكمال .

قد علمتم كم كان لأبائنا من راحة وتحرز ، وكم تواضع وتحفظ ، وشقاء وازدراء بذاتهم ، فالآن الحرب عظيمة فلا نتهاون ، ولا تظنوا أنكم قد وصلتم إلى الكمال ؛ إن الحاجة ماسة إلى تعب كثير وجهاد جزيل لننال الخلاص .

لا تظنوا أن التزين الكثير أو سدل الثياب هو التعبد ؛ أو أن تكون يدا الإنسان بهيتين ذلك يخلصه ، أو حسن المنطق ، أو ترجمة الكتب هو الكمال ، أو كشف الرؤوس ؛ أو تسريح الشعور وتنظيفها بغير الفضائل الموافقة للملائمة التي لا تنحصر في لبس الإسكيم .

لكن الإسكيم الذي يتبعه الخلق الجميل والأعمال ؛ لأن الإسكيم خلواً من الأعمال ليس شيئاً ؛ فلا تُهملوا الاهتمام ؛ ولا تتراخوا لأن الحاجة إلى تعب كثير كي نلجم الحداثة .

فإن كنتم تستثقلون المقولات ؛ لكن ذلك لا يغمني لأنني أشاء أن تقبلوا مكافئاً لتزليوا القبح وتنزعوا التماسي ، ولا تظنوا إن كنتم أمكم ينساها الله ؛ فإنني أقول لكم إن الأفعال الخفية فيكم أستقبح أن أكتبها لأنني إن عملت ذلك لا تثبتون بل تُهربون .

فلهذا أطلب إليكم أن تواضعوا ذاتكم بالطاعة بالمحبة بالحقارة بالإهانة ، وبهذه أطيعوا بعضكم بعضاً ، وأخضعوا بالصوم بالصلاة بالسهر بالترتيب الممدوح ، لا تكونوا في الخصومة أقوىاء وفي الترنيم ضعفاء .

لا تكونوا منتبهين إلى مناجات الأفكار وناظرين مثل وحوش ، وفي الصلاة متناعسين وتغمضون عيونكم ، لا تكونوا في الحديث الباطل أقوىاء كالثيران وفي هذيذ تمجيد الله ضعفاء كالثعالب ، لا تكونوا في حجج الخصومة غير مغلوبين وفي الأقوال الروحانية تتنأبون .

لا تكونوا في اللعب أصحاب وإذا وعظمت تقطبون ، لا تكونوا في النهار معافين بنهم البطن وفي الصلاة الليلية متمرصين ، لا تكونوا في المحادثات جبابرة وفي الأعمال منحلين ، لا تكونوا في أن تأمروا مكرمين وفي أن تؤمروا متنافرين .

لا تكونوا ملتذنين بأن تطاعوا وفي أن تطيعوا مقطبين ، لا تكونوا في أن تأمروا صارمين وإذا أمرتم تتذمرون ، لا تكن الأيدي إلى الأصابع واللسان إلى الصدر ، لا تكونوا إلى المائدة متسارعين وفي الأعمال متوانين .

لا تكونوا في استدعاء النواظر إليكم متيقظين وفي أن تميزوا شيئاً صالحاً مظلماً ، لا تكونوا بحضرة الإناث متأدبين ومع إخوتكم متمترين ، لا تكونوا في كثرة الغتداء أقوىاء وفي الصيام ضعفاء ، لا تكونوا في شرب الخمر مسرورين وفي شرب الماء مقطبين ومكتئبين .

لكنني أُتضرع إليكم يا أولاد الله ؛ أن تتخذوا الغيرة النفيسة ؛ ومهما كان ممدوحاً صالحاً يختص بالمنفعة، اقتنوا أول كل المناقب التواضع ؛ المحبة؛ الخيرية ؛ الوداعة والودعة سامعين بعضكم لبعض.

ولا تتخاصموا في شيء لا ينفع ، وكونوا غير عاجزين في الصوم والصلاة لتستطيعوا أن تغلبوا الأمر الجسد ؛ لكي لا من أجل الآلام المنكرة نعدم مثل جسامة هذه الخيرات ، لا نبتغ الوقتيات فنضيع المجد الذي لا يفنى .

أسرعوا وبادروا وما دمنا في الجسد فلنعمل المناقب التي ترضي الله ، ولنحرص فقد حصلنا في شيء عظيم ، فلا نُهمل الاهتمام فليس صراعنا بإزاء أناس مبصرين لكي ما إذا رأيناهم نتحرز منهم بل الذين يحاربوننا لا يرون .

فلأجل هذا إن العطب عظيم للمتوانين ؛ وإذا غلبوا فلهم ثواب جزيل ، فلنغلبهم بالحيل ولنصافهم ، فإذا حرضنا العدو على شره البطن فلنحاربه بالصوم ، إن هيجنا إلى اشتهاة امرأة فلنستعمل الصبر؛ ونمسك الحس ونهرب من المكان .

إذا أنهضنا إلى الغيظ فلنتضرع بالسلامة ، إن جعلنا أن نغضب فلنتخذ الوداعة ، إن أنهضنا إلى المقت فلنلصق المحبة ، إذا حصلنا إلى ابتغاء الإكرام فلنوضح رغبة الاستحفار .

إذا حضنا إلى رغبة الشرف فلنتخذ الخفضة والنداءة ، إن خيل لنا أمور الاستعلاء فلنصور في ذهننا تواضع الرب ، أن حرضنا إلى مغايرة أختينا فلنخطر ببالنا سقطة قايين .

إن استتهضنا إلى الحسد فلنذكر هلاك عيسو ؛ إن حركنا إلى الاغتياب فلنسيج علينا الصمت ، إن قاومناه هكذا يهرب ولا يثبت ، وتوافي وقتنذ النعمة وتكللنا كما يليق بالظافرين .

صدقوني يا إخوتي أنني مشجوب من جميع الأشياء التي وعظتكم أن تحفظوها فقد صرتم أتقياء وأنا متوكل بحمأة الخطايا .

لكن بادروا أن تتبعوني بتوبتكم الجليلة ، صدقوني أنني ما حفظت شيئاً مما قلت ، زينوا أقوالي بأعمالكم وأنا متيقن أنكم ستوجدون بلا عيب وأنا سأدان عن الأقوال التي أقولها ولا أعملها .

لا نتوانى عن خلاصنا ؛ ولا نحسب المقولات مثل أمثال ؛ فإننا ما أوردنا شيئاً خارج المكتوبات والمقولات ليست كاذبة .

فلنقبل زرع هذا القول ؛ ونثمر كالأرض الصالحة بعض ثلاثين وبعض ستين وبعض مائة ، لكي ما إذا حملنا الأثمار وتسربلنا ببهاء الفضائل نفرح بربنا يسوع المسيح ، وهو ينجينا في ملكوته .

فإن له يليق المجد

إلى أبد الدهور

أمين